الباب التاسع

في الذكاء والفطنة

ذكاء البنت الصغرى:

للعرب من فنون الذكاء والفصاحة، ما يجعلهم يفهمون مقاصد الكلام ومتعلّقه، فإذا أضيف إليه ما يكمّله ويتمّمه ظهر المعنى ووضح الحق الذي يوصل إلى ما كان يقصده صاحب الرسالة، فتنكشف الأمور ويظهر أن حامل الرسالة يحمل دليل خيانته ، وحجة إدانته، وفيما يلي دليل على ذلك:

ويحكى أن رجلاً غنياً حمل عنده مالاً كثيراً، وصحب معه في سفره عبدين، فلما علما بكثرة ماله، وقد توسّطا الطريق همّا بقتله والاستحواذ على ما عنده من المال، فلما تيقن من صحّة ما عزما عليه قال لهما : أقسم عليكما إذا كان لا بدّ لكما من قتلي أن تمضيا إلى داري وتنشدا هذا البيت، قالا: نعم، وما هو؟ قال:

من مبلغ بِنْتَيَّ أن أباهما ... لله دركما ودر أبيكما

فقال أحدهما للآخر ما نرى بأسا من تبليغ البيت إلى البنتين، فقتلا الرجل وأقبلا إلى دار المقتول، فلما وصلا وجدا الإبنة الكبرى، فقالا: إن أباك قد لحقه ما يلحق الناس، وآل علينا أن نخبركما بهذا البيت،فلما سمعت الكبرى البيت قالت: ما أدري ما فيه شيئاً تخبران به ولكن اصبرا حتى استدعي أختي الصغرى.

فلما حضرت الأخت الصغرى، أنشدتها البيت فخرجت حاسرة كاشفة ذراعيها، وحسرت خمارها تصيح بأعلى صوتها: يا معشرالعرب أمسكوا هذين العبدين فقد تأكد عندي قتلهما لأبي، ألستم فصحاء؟.

قالوا: ما دليلك على قولك؟ قالت: إن المصراع الأول يحتاج إلى مصراع ثانٍ، والبيت هما صدرا بيتين، لأن المصراعين يحتاجان إلى تكملة، وليس بين المصراعين في البيت تكامل، وأبي أفصح من أن يقول شعراً بغير هدف يرمي إليه، أو بغير معنى يقصده، والقول الفصل والذي يقصده أبونا هو قوله:

من مخبر بِنْتَيَّ أن أباهما ... أمسى قتيلاً بالفلاة مجندلا
لله دركما ودر أبيكما ... لن يبرح العبدان حتى يقتلا

فضيق الخناق على العبدين، فاعترفا بالقتل، وظهر الأمر كما عرفت الإبنة الصغرى، وهكذا حمل العبدان الرسالة التي أدانتهما، فحكم عليهما بالقتل فَقُتِلَا.

ذكاء كاتب أبي جعفر المنصور:

يحكى أن أبا جعفر المنصور، قال يوماً من الأيام للمهدي: قد عزمت على أن أوليك هذا الأمر الذي أنا فيه، وأردّه إليك فقد كبرت،وعجزت عن مباشرة الأعمال والنظر فيها،وأحببت الراحة والدعة،وأنت أولى بها وأجدر من يقوم بالأمر. فخرج المهدي إلى أبي عبيد الله معاوية بن عبيد الله بن يسار كاتب أبي جعفر المنصور، مستبشراً مسروراً، وأخبره بما عرضه عليه أبو جعفر المنصور، فقال له أبو عبيد الله: اتق الله ولا تظهر لأمير المؤمنين قبولاً لما ذاكرك به، وإذا راجعك في ذلك فقل له: لا والله ، ولا أعرف لهذا الأمر ما أبقى الله أمير المؤمنين، ونتمنى له طول العمر، ونفدي أمير المؤمنين بأرواحنا، وإنما ما عرض ذلك عليك إلا ليختبرك، وليعلم ما ترمي إليه.

فلما دخل المهدي على أبي جعفر المنصور،قال له: يا أبا عبد الله، هل فكرت فيما قلته لك، أو شاورت فيه أحداً؟ فقال المهدي: ما بي من قوة على ذلك ويبقي الله أمير المؤمنين، ويمدّ في أنفاسه، ويمتّعنا الله بحياته.

فقال له : سبحان الله من صدّك عن ذلك، ومن ناظرت فيه؟ فقال المهدي: لقد شاورت أبا عبيد الله، فقال أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور: فأي شيء قال لك؟ فعرَّفه ما قال له، فأطرق أبو جعفر المنصور هنيهة ثم قال :علي بأبي عبيد الله.

فلما دخل عليه أبو عبيد الله كاتبه، قال له : ما هذا الذي ناظرك فيه أبو عبد الله ، وكيف رأيت ألا يقبل؟ قال أبو عبيد الله : أأصدقك وأنا آمن؟ فقال له: هات ما عندك وأنت آمن، ولم لا تصدقني وأنت كاتبي؟.

فقال أبو عبد الله: إنه والله ما عرضت عليه ما عرضته وأنت تريد أن توليه، وإنما أردت أن تختبر عقله، ومدى حرصه على ذلك، وما كنت لتطيب نفساً بترك ما أنت فيه.

فقال أبو جعفر المنصور لكاتبه: وكيف توهّمت ذلك؟. قال لأني سمعتك تقول: إني أستيقظ بالليل فأدعو بالكتب فأضعها بين يدي، وأدعو بخادم فآمره أن يدهن ظهري بالدهن، فيفعل ذلك وأنا مقبل على ركبتي وتدبيري، والنظر في أموري، فعلمت أنك لا تدع شيئاً يكون موقعه منك هذا الموقع وتؤثر به غيرك بهذه البساطة.

فقال أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين لكاتبه أبي عبيد الله :ما كنت أرى أن أحداً يتفقد ما تفقدته، وقد أصبت الرأي وأحسنت بارك الله عليك، تلك هي فطنة كاتب أمير المؤمنين، وهكذا يجب على من ابتلي بالقرب من الملوك.

ثمرة الذكاء:

يروى من حدة الذكاء، أن امرأة جاءت إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ تشكو زوجها، لتقصيره في حقها، فقالت: يا أمير المؤمنين إن زوجي يصوم النهار،ويقوم الليل.

فقال لها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: نعم الرجل زوجك، ثم أعادت إليه القول، فقالت: يا أمير المؤمنين: أشكو إليك خير أهل الدنيا إلا رجلاً سبقه أو عمل بمثل عمله، يقوم الليل حتى يصبح، ويصوم النهار حتى يمسي، ثم تجلاها الحياء، فقالت: يا أمير المؤمنين، أقلني، فقال لها: جزاك الله خيراً قد أحسنت الثناء قد أقلتك.

فلما ولّت المرأة، وكان كعب بن سور بن بكر بن عد بن ثعلبة الأزدي العماني حاضراً، فقال: يا أمر المؤمنين، لقد أبلغت إليك في الشكوى، فقال أمير المؤمنين ما اشتكت؟ أي بمن اشتكت؟. فقال كعب: اشتكت زوجها في هجرها في الفراش.

فقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لكعب بن سورالأزدي : كما فهمت كلامها فاحكم بينهما. فقال كعب بن سور: عليّ بها وبزوجها، فأحضرا، فلما حضرا قال له كعب: إن هذه المرأة تشكوك، قال الزوج : أفي أمر طعام أم شراب؟.

قال كعب: بل في أمر مباعدتك إياها عن الفراش،وحرمانها حقَّها، فصم ثلاثة أيام وأفطر عندها يوماً، وقم ثلاث ليال وبت عندها ليلة، فتلك ثلاثة أيام بلياليها، ولها يوم بليله.

كعب بن سور قاضي البصرة:

فقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ، لا أدري من أيكم أعجب، أمن، شكواها زوجها، أم من فهمك لمقصد كلامها،أم من حكمك بينهما، فعلى أي شيء استندت في حكمك؟

فقال كعب : يا أمير المؤمنين، يقول الله، وهو أصدق القائلين في كتابه العزيز: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾ [سورة النساء: ٣] . فلا أقل من أن تكون الرابعة. حينئذ قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ لكعب بن سور: إذهب يا كعب فقد وليتك قضاء البصرة.

كعب يعتزل الفتنة:

وعن الأحنف بن قيس، واسمه : الضحاك بن قيس بن معاوية التميمي ، ولدته أمه أحنف، فقالت وهي تقصه :

والله لــولا حــنــف في رجـله ما كـان في الحـي غـلام مثله

ويكنى الأحنف أبا بحر، قال الأحنف: لما التقى الجمعان يوم الجمل خرج كعب ابن سور الأزدي ناشراً مصحفه، يذكر هؤلاء، ويذكر هؤلاء حتى أتاه سهم فقتله، وقال بعض أهل العلم: إن كعب بن سور،لما قدم طلحة والزبير وعائشة البصرة دخل في بيت وطين عليه، وجعل فيه كوة يناول منها طعامه وشرابه اعتزالاً للفتنة وابتعاداً عن الشبهة.

فقيل للسيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: إن كعب بن سور الأزدي، إن خرج معك لم يتخلّف من الأزدي أحد، فركبت إليه،فنادته وكلمته فلم يجبها، فقالت: يا كعب ألست أمك، ولي حق عليك؟. فكلمها كعب فقالت: إنما أريد أن أصلح بين الناس، فذلك سبب خروجه حين خرج، وأخذ المصحف، فنشره ومشى بين الصفين، يدعوهم إلى ما فيه، أي إلى ما في **كتابِ الله**، فجاءه سهم غرب فقتله، وكان كعب معروفاً بالخير والصلاح.

ذكاء يُنْجي صاحبه:

حكى الأصمعي عن أبيه قال: أتي عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين برجل كان مع بعض من خرج عليه، فقال : عبد الملك : اضربوا عنقه، فقال الرجل: يا أمير المؤمنين : ما كان هذا جزائي منك، قال عبد الملك : وما جزاؤك؟.

قال: والله ما خرجت مع فلان إلا بالنظر لك، وذلك أني رجل مشؤوم ما كنت مع رجل قط إلا غلب وهزم، وقد بان لك صحة ما ادعيت وكنت لك خيراً من مائة ألف معك، فضحك عبد الملك بن مروان، وخلّى سبيله.

وروى أبو الحسن بن هلال الصبابي، أن الحجاج بن يوسف انفرد يوماً من عسكره، فمر ببستاني يسقي بستانه، فقال له الحجاج: كيف حالكم مع أميركم الحجاج ابن يوسف؟. فقال البستاني: لعنه الله المبيد الحقوق، عجل الله الانتقام منه، فقال له الحجاج: أتعرفني؟. قال البستاني: لا. قال الحجاج: أنا الحجاج بن يوسف، فرأى البستاني أنه وقع في مأزق، وأن دمه قد طاح،فرفع البستاني عصا كانت معه، فقال للحجاج :أتعرفني. قال الحجاج : لا. قال البستاني: أنا أبو ثور المجنون، وهذا يوم صرعي، وأرغَى وأزبَد وهَاج، وأراد أن يضرب رأس الحجاج بالعصا، فضحك الحجاج منه وانصرف، ونجىّ البستاني نفسه من الحجاج بذكائه، وحيلته، ولا يعرف الذكي إلا وقت الحرج والضيق.

ذكاء هارون الرشيد:

ودخلت امرأة على أمير المؤمنين هارون الرشيد، وعنده جماعة من وجوه أصحابه، فقالت: يا أمير المؤمنين، أقرّ الله عينيك، وفرحك بما آتاك، وأتم سعدك، لقد حكمت فقسطت.

فقال لها أمير المؤمنين هارون الرشيد: من تكونين أيتها المرأة؟ فقالت: من آل برمك ممن قتلت رجالهم، وأخذت أموالهم، وسلبت نوالهم، فقال لها: أما الرجال فقد مضى فيهم أمر الله،ونفذ فيهم قدره، وأما المال فمردود إليك.

ثم التفت أمير المؤمنين إلى الحاضرين، فقال: أتدرون ما قالت هذه المرأة؟. فقالوا: ما نراها قالت إلا خيراً، مدحت وأثنت، وفصّلت، قال: ما أظنكم فهمتم قصدها ومرماها، وقد أبعدت المرمى.

أما قولها: أقرّ الله عينيك، أي أسكنهما عن الحركة، وإذا سكنت العينان عن الحركة عميت. وأما قولها: وفرّحك بما آتاك، فهي تشير إلى معنى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾ [سورة الأنعام: ٤٤]. وأما قولها : وأتم الله سعدك، فأخذته من قول

الشاعر:

إذا تـــم شـيء بـــدا نقصـــه ترقـــب زوالاً إذا قـــيـل تـــم

وإما قولها : لقد حكمت فقسطت، فأخذته من قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَاسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [سورة الجن: ١٥].

فتعجب الحاضرون من ذكائها ومقصدها، ومن حدة ذكاء وفهم أمير المؤمنين هارون الرشيد لمرماها والاستناد على ما فهم من قولها بالأمثلة والأدلة القاطعة.

ذكاء أبي جعفر المنصور:

يحكى من ذكاء أبي جعفرعبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس أمير المؤمنين، الملقب بالمنصور، أنه جلس يوماً من الأيام في إحدى قباب مدينة المنصور، فرأى رجلا يجول في الطرقات مضطرباً ملهوفاً، فأرسل إليه من أتاه به، فسأله عن حاله وسبب اضطرابه، فأخبره أنه خرج في تجارة فربح فيها مالاً كثيراً، فعلمت به زوجتي ودفعته إليها لتحفظه، وبعد فترة سألتها عن المال فقالت: لقد خرجت من المنزل لزيارة أهلي، ولما رجعت إلى المنزل فوجئت بأن المال سرق، فلما أخبرتني بذلك بحثت في المنزل فلم أر ما يدلّ على أن أحداً دخل المنزل ليسرق فتحيرّت في الأمر، فهذا الذي جعلني قلقاً مضطرب الحال.

فقال له المنصور: منذ كم تزوجتها؟ فقال الرجل التاجر: منذ سنة تقريباً، قال المنصور: تزوجتها بكراً أم ثيباً؟، قال الرجل: تزوجتها ثيباً، قال المنصور: تزوجتها شابة أم مسنة؟، قال:تزوجتها شابة، فدعا أمير المؤمنين المنصور بقارورة طيب، وقال له: تطيب بهذا الطيب فإنه يذهب هم المهمومين، ولعل إن شممته يزيل همك.

فاخذ الرجل التاجر قارورة الطيب من أمير المؤمنين المنصور وشكره على ذلك، وٱنقلب به الرجل إلى أهله، فقال لزوجته هذا طيب أهداه إليّ أمير المؤمنين فٱحتفظي به، فلما شمته أعجبها غاية الاعجاب.

وقال أمير المؤمنين المنصور لبعض نقبائه،اقعدوا على أبواب المدينة ، فمن مر بكم وشممتم منه روائح هذا الطيب فأتوني به، فإن له قصة.

فلما شمت زوجة التاجرعطر أمير المؤمنين ،قالت:إن هذا الطيب لا يصلح إلا لفلان، رجل كانت تحبه، وقد تفرّس أمير المؤمنين المنصور، بأن المال لم يسرق وإنما أعطت المرأة زوجة التاجر المال لمن تحبه من الرجال،وهي كذلك لن تبخل عليه بقارورة الطيب التي قدمها أمير المؤمنين للرجل التاجر.

وفعلاً لقد تحقّق ظنّ أمير المؤمنين المنصور في ذلك، فقدّمت زوجة الرجل التاجر قارورة الطيب إلى الرجل الذي تحبه،وأوصته بأن يتطيّب به ، فتطيّب الرجل بذلك الطيب، ومرّ مجتازاً ببعض الأبواب، ففاحت منه رائحة الطيب ، فقبض على الرجل، فأخذ إلى أمير المؤمنين المنصور.

فسأل الأمير الرجل قائلاً له: من أين حصلت على هذا الطيب؟ فتلجلج الرجل في كلامه، ولم يستطع أن يخبر أمير المؤمنين بحقيقة مصدر الطيب، فسلمه الأمير إلى صاحب شرطته، وقال له: إن أحضر مبلغ كذا وكذا من الدنانير فخذ منه المبلغ ، وإلا فاضربه ألف ضربة.

فما هو إلا أن جرّد من ثيابه وهدد بالضرب حتى أذعن بردّ الدنانير، وأسرع بإحضارها خوفاً من الضرب، فأحضرها كاملة، وقال معترفاً: إن الذي قدّم إليّ الطيب هو الذي أعطاني الدنانير.

ثم أخبر أمير المؤمنين المنصور بذلك، فطلب الأمير حضور التاجر،فحضر فقال له أمير المؤمنين :أرأيت إن رددت إليك الدنانير أترضى بحكمي في امرأتك؟. فقال التاجر: نعم يا أمير المؤمنين، قال أمير المؤمنين :ها هي دنانيرك، وقد طلقت زوجتك فهي لا تصلح لك، فأمضى التاجر الطلاق ورضي بحكم أمير المؤمنين.

إن العاقل ينبغي له أن يأخذ العبر من حوادث الزمن،ففيه من العبر ما تغني صاحب العقل السليم، الذي يتدبّر صروف الليالي والأيام، ومن هذا المنطلق على العاقل أن لا يغتر بالمناظر الخلاّبة، فهي مخالب للقلب، فكم من منظر يراه الرائي فيعجب به، ثم يفاجأ بأنه سراب ببقيعة.

وكم من أناس خدعوا بالفاتنات المغنيات الفتانات، الصائدات المصطادات في الماء العكر، يفرشن الحرير لمن يردن إصطياده ،ثم إذا دخل في شبكهن ، قلب ظهر المجن، وبدأ الاعصار الناري في الاحراق، فيجتاح الأخضر واليابس، فيذهب المال

والحال، فإذا أفاق من سكرته، وجد نفسه في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج، نتيجة الهموم والغموم، وحيداً ملقى على قارعة الطريق، والسبب الاغترار بالمظاهر البراقة.

وقصة صاحبنا الآنفة الذكر من هذا القبيل، خدع بالمظهر ولم يبحث عن المخبر، ولم يحكم العقل فيما أقدم عليه، ولم يتذكر قوله تبارك وتعالى حيث قال: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الروم: ٢١].

دور المرأة في الإصلاح:

قال الحارث بن عوف يوماً لخارجة بن سنان: أتراني أخطب إلى أحد فيّردني؟ فقال له: نعم. قال: من ذاك؟ قال: أوس بن حارثة الطائي، فقال الحارث لغلامه: إرحل بنا ففعل، وركبا حتى أتيا أوس بن حارثة في بلاده فوجداه في فناء منزله، فلما رأى الحارث بن عوف قال: مرحبا بك يا حارث، قال: جئتك خاطباً، قال: لست هناك.

فانصرف ولم يكلّمه، ودخل أوس على امرأته مغضباً ـ وكانت من عبس ـ فقالت: من رجل واقف عليك فلم يطل، ولم تكلّمه؟ قال أوس: ذلك سيد العرب الحارث ابن عوف، قالت: فما لك لم تستنزله؟ قال: إنه استحمق، قالت: وكيف؟ قال: جاءني خاطباً، قالت: أفتريد أن تزوج بناتك؟ قال: نعم، قالت: فإذا لم تزوج سيد العرب فمن تزوج؟ قال: قد كان ذلك، قالت: فتدارك ما كان منك، قال: بماذا؟ قالت: تلحقه فتردّه، قال: وكيف وقد فرط مني ما فرط إليه، قالت: تقول له لقيتني مغضباً بأمر لم تقدم فيه قولاً، فلم يكن عندي فيه من الجواب إلا ما سمعت، فعد ولك عندي كل ما أحببت، فإنه سيعمل، فركب في أثرهما.

قال خارجة بن سنان: فو الله إني لأسير مع الحارث إذ حانت مني التفاتة، فرأيت أوساً، فأقبلت على الحارث ـ وما يكلمني غماً ـ فقلت له: هذا أوس بن حارثة في أثرنا، قال: وما أصنع به؟ إمض. فلما رآنا لا نقف عليه صاح: يا حارث اربع عليّ ساعة، فكلّمه بذلك الكلام، فرجع مسروراً.

ودخل أوس منزله، وقال لزوجته: ادعي لي فلانة لأكبر بناته، فأتته، فقال: يا بنية هذا الحارث بن عوف سيد من سادات العرب، قد جاءني طالباً خاطباً، وقد أردت أن أزوجك منه، فما تقولين؟. قالت: لا تفعل. قال: ولم؟ قالت: لأني امرأة في وجهي ردة ، أي شيء من القبح، وفي خلقي بعض العهدة، أي العيب، ولست بابنة عمه فيرعى رحمي، وليس بجارك في البلد فيستحيي منك، ولا آمن أن يرى مني ما يكره فيطلقني، فيكون علي في ذلك ما فيه.

قال: قومي، بارك الله عليك، ادعي لي فلانة لابنته الوسطى، فدعتها، ثم قال لها مثل قوله لأختها، فأجابته بمثل جوابها، وقالت: إني خرقاء أي امرأة غير صناع، وليست بيدي صناعة، ولا آمن أن يرى مني ما يكره، فيطلقني، فيكون عليّ في ذلك ما تعلم، وليس بابن عمي فيرعى حقّي، ولا جارك في بلدك فيستحييك، قال: قومي، بارك الله عليك، ادعي لي بهيسة ـ صغرى بناته ـ فأُتي بها، فقال لها كما قال لهما، فقالت : أنت وذاك، فقال لها : قد عرضت ذلك على أختيك فأبتاه، فقالت: (ولم يذكر لها مقالتهما) لكني والله الجميلة وجهاً، الصناع يداً، الرفيعة خلقاً، الحسيبة أباً، فإن طلقني فلا أخلف الله عليه بخير، فقال : بارك الله عليك.

ثم خرج إلى الحارث، فقال : زوجتك يا حارث بهيسة بنت أوس، قال الحارث: قبلت، فأمر أمها أن تهيئها، وتصلح من شأنها، ثم أمر ببيت فضرب له،وأنزله إياه، فلما هيئت بعث بها إليه.

قال خارجة بن سنان: فلما أدخلت إليه لبث هنيهة ثم خرج إليّ، فقلت: أفرغت من شأنك؟ قال: لا والله ، فقلت : وكيف ذاك؟ قال : لما دخلت إليها قالت: مه، أعند أبي وإخوتي؟ هذا والله ما لا يكون.

قال خارجة: ثم أمر بالرحلة، فارتحلنا ورحلنا بها معنا، فسرنا ما شاء الله، ثم قال لي: تقدّم ، فقدّمت، وعدل بها عن الطريق، فما لبث أن لحق بي، فقلت: أفرغت؟ فقال: لا والله، قلت: ولم؟ قال: قالت لي: أكما يفعل بالأمة الجليبة السبية الأخيذة لا والله، حتى تنحر الجزور، وتذبح الغنم، وتدعو العرب، وتعمل ما يفعل لمثلي، قلت: والله إني لأرى همة وعقلاً، وأرجو أن تكون المرأة منجبة إن شاء الله.

قال خارجة : فرحلنا حتى جئنا بلادنا، فأحضر الإبل والغنم، ثم دخل عليها، وخرج إلي، فقلت: أفرغت، قال: لا، قلت: ولم؟ قال: دخلت عليها، وقلت لها: قد أحضرنا من المال ما قد ترين، فقالت: والله لقد ذكرت لي من الشرف ما لا أراه فيك، قلت: وكيف؟ قالت: أتفرغ للنساء والعرب تقتل بعضها بعضاً، قلت: فيكون ماذا؟.

قالت: اخرج إلى هؤلاء القوم فأصلح بينهم، ثم ارجع إلى أهلك فلن يفوتك ما تريد، فقلت: والله إني لأرى همة وعقلاً، ولقد قالت قولاً.

قال خارجة: ثم قال الحارث: اخرج بنا، فخرجنا حتى أتينا القوم، فمشينا فيما بينهم بالصلح، فاصطلحوا على أن يحتسبوا القتلى، فيؤخذ الفضل ممن هو عليه، فحملنا عنهم الدِّيات، فكانت ثلاثة آلاف بعير في ثلاث سنين، فانصرفنا بأجمل الذكر، فمدح لذلك زهير بن أبي سلمى وحين قال قصيدته فيهم :

أمِنْ أمّ أوفى دمنةٌ لمْ تكلّمِ بحومانة الدراج فالمتثلمِ

ثم قال :

سعى ساعيا غيظ بن مرة بعدما تبزل ما بين ا لعشيرة بالدم
فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم
يمينا لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم
تداركتما عبساً وذ بيان بعدما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم
وقد قلتما إن ندرك القوم واسعاً بمال ومعروف من القول نسلم
فأصبحتما منها على خير موطن بعيدين فيها من عقوق ومأثم
عظيمين في عليا معدّ هديتما ومن يستبح كنزاً من المجد يعظم
وأصبحُ يُحْدَى فيهمْ من تلادكم مغانم شتى من إفال مزنم
تعفى الكلوم بالمئين فأصبحت ينجمها من ليس فيها بمنجم
ينجمها قوم لقوم غرامة ولم يهرقوا ما بينهم ملء محجم
ألا أبلغ الأحلاف عني رسالة وذبيان هل أقسمتم كل مقسم
فلا تكتمن الله ما في صدوركم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم

إنها صفحة خالدة لذلك الموقف النبيل ، والخلق العظيم، كيف لا وقد أوقفت نزيف دماء تهرق بغير حق، وقد قام بحقنها من لم يشارك فيها ، ولو بكلام يثير الحفيظة، وقد تحمل عبئاً ثقيلاً، ومع ذلك فهو يرى ما يمكن أن يدفع بالمال يهون أمره لمقاصد نبيلة.

فمات المادح والممدوح، وبقي الذكر الحسن ، تتناقله الأجيال جيلاً بعد جيل، إعجاباً بمواقف الرجال، مات هرم بن سنان حوالي سنة (١٥) قبل الهجرة النبوية، في أرض لبني أسد يقال لها: (زوراء) وهو متوجه في طريقه إلى الملك النعمان.

ووفدت بنت هرم بن سنان على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ في خلافته، فقال لها: ما الذي أعطى أبوك زهير بن أبي سلمى حتى قابله من المديح بما قد سار فيه؟ فقالت : ما أعطى هرم زهيراً قد نسي، قال: ولكن ما أعطاكم زهير لا ينسى.

ومما قاله زهير بن أبي سلمى في هرم بن سنان وأهل بيته:

إليك أعملتها فتلاً مرافقها ... شهرين يجهض من أرحامها العلق
حتى دفعن إلى حلو شمائله ... كالغيث ينبت في آثاره الورق
من أهل بيت يرى ذو العرش فضلهم ... يبنى لهم في جنان الخلد مرتفق
المطعمون إذا ما أزمة أزمت ... والطيبون ثياباً كلما عروا
كأن آخرهم في الجود أولهم ... إن الشمائل والأخلاق تتفق
إن قامروا قمروا أو فاخروا فخروا ... أو ناضلوا نضلوا أو سابقوا سبقوا
تنافس الأرض موتاهم إذا دفنوا ... كما تنافس عند الباعة الورق

وفي الحديث النبوي الشريف عن رسول الله ﷺ قال: «**إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه**» ، **وقال** : «**الخلق عيال الله فأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله**»، وقال أيضاً: «**اصطناع المعروف يقي مصارع السوء**» وقال ﷺ: «**إن الله يحب الجود ومكارم الأخلاق، ويبغض سفاسفها**»، اللّهم حبب إلينا الجود ومكارم الأخلاق، وكرّه إلينا البخل وسوء الأخلاق.

روى أبو الفرج الأصفهاني، قال: أخبرني أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري، وأبو بكر الأنباري هذا، كان من أعلم الناس في زمانه بالنحو والأدب صنف كتباً كثيرة في علوم القرآن، وغريب الحديث، توفي عام ٣٢٩هـ.

قال أبو بكر الأنباري، قال حدثني أحمد بن عبيد عن الهيثم بن عدي ، عن عبد الملك بن عمير، قال : قدم علينا عمر بن هبيرة الكوفة، فأرسل إلى عشرة أنا عاشرهم من وجوه أهل الكوفة، فسمرنا عنده .

ثم قال : يحدثني كل رجل منكم أحدوثة، وابدأ أنت يا أبا عمرو، فقلت: أصلح الله الأمير، أحديث الحق تريد أن أحدثك، أم حديث الباطل؟.

قال: حدثني بحديث الحق، ولا حاجة لنا بحديث الباطل، فقلت: إن امرأ القيس ابن حجر الكندي أمير شعراء الجاهلية، أقسم أن لا يتزوج بامرأة حتى يسألها عن ثمانية أشياء، وعن أربعة أشياء وعن شيئين، فجعل يطوف أحياء العرب، ويخطب النساء، فإذا سألهن عن ثمانية، وعن أربعة وعن اثنين قلن له:إنها أربعة عشر.

فبينما هو يسير في الليل، وإذا هو برجل يحمل ابنة له صغيرة، كأنها القمر ليلة البدر، فأعجبته.

فقال لها امرؤ القيس : يا جارية أريد أن أسألك عن أشياء، إن كان عندك لها جواب، قالت : اسأل، فقال امرؤ القيس، أسألك عن ثمانية أشياء، وعن أربعة أشياء، وعن شيئين؟.

فقالت الجارية: بلسان فصيح: أما الجواب عن سؤالك ما الثمانية فهي أطباء الكلبة، والأطباء مفردها طبي، بضم الطاء، حلمات الضرع في ذوات الخف والظلف والحافر والسباع .

والجواب عن الأربعة الأشياء: فهي أخلاف الناقة ، أخلاف مفردها خلف بكسر الخاء، ضرع الناقة، والجواب عن شيئين فهما ثديا المرأة .

فخطبها من أبيها فزوجه إياها، فهي المرأة التي كان يبحث عنها ، ولكنها اشترطت هي عليه شروطاً أن تسأله ليلة زفافها إليه عن ثلاث خصال، فإن أجابها رضيت به، وإن لم يجبها فلا سبيل له عليها، فجعل لها ذلك، وعلى أن يسوق لها مائة من الإبل، وعشرة أعبد، وعشر وصائف، وثلاثة أفراس ففعل ذلك.

ثم إنه بعث عبداً له إلى المرأة، وأهدى إليها نحياً من سمن: (النحي الزق يوضع فيه السمن أو العسل)، ونحياً من العسل، وحلة من قصب (الحلة بالضم، وجمعها حلل) الثوب الساتر لجميع البدن، والحلة لا تكون إلا ثوبين مزيّنين بشرائط الذهب المطروق.

نزل العبد ببعض المياه ، فنشر الحلة ولبسها فتعلقت بشجرة فانشقت، وفتح النحيين ، وأطعم أهل الماء منهما.

ثم قدم على حي المرأة وهم خلوف، الحي الخلوف: أي رجالهم غُيّب، فسألها عن أبيها وأمها وأخيها، ودفع إليها هديتها.

فقالت : أعلم مولاك أن أبي ذهب يقرب بعيداً، ويبعد قريباً، وأن أمي ذهبت تشق النفس نفسين، وأن أخي يراعي الشمس، وأن سماءكم انشقت، وأن وعائكما نضبا (تقصد أن النحيين نقصا، وأن الحلة انشقت).

فقدم الغلام على مولاه، وأخبره بما قالت، فقال: أما قولها : ذهب أبي (يقرب بعيدا ويبعد قريباً)، فإن أباها ذهب يحالف قوماً على قومه.

وأما قولها إن أمي ذهبت: (تشق النفس نفسين)، فإنها ذهبت تقبل امرأة للولادة.

وأما قولها: إن أخي يراعي الشمس، فإن أخاها في سرح له يرعاها، فهو ينتظر وجوب الشمس (أي غروبها) ليرجع بماشيته.

وأما قولها :إن سماءكم انشقت، فإن الحلة التي بعثت بها معك انشقت.

وأما قولها : إن وعاءيكما نضبا، فإن النحيين اللّذين بعثت بهما معك نقصا، فأصدقني ما الذي حصل لك في طريقك إليها.

فقال العبد: يا مولاي، إني نزلت بماء من مياه العرب، فسألوني عن نسبي فأخبرتهم أني ابن عمك، ونشرت الحلة فلبستها، وتجملت بها فعلقت بشجرة فانشقت، وفتحت النحيين اللّذين حملتهما فأطعمت منهما أهل الماء.

فقال له امرؤ القيس أولى لك كلمة تقال للوعيد أو التهديد، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة القيامة: ٣٣- ٣٥].

ثم ساق مائة من الإبل وخرج نحوها، ومعه الغلام فنزل منزلاً، فقام الغلام ليسقي، فعجز فأعانه امرؤ القيس، فرمى به الغلام في البئر، وانصرف حتى أتى المرأة بالإبل فأخبرهم بأنه زوجها.

فقيل لها: قد جاء زوجك، فقالت: والله لا أدري أهو زوجي أم لا، ولكن انحروا له جزوراً: (الجزور ما أعدّ للنحر أو الذبح من النوق أو الغنم) وأطعموه من كرشها وذنبها، فأطعموه، ففعلوا فأكل ما أطعموه.

فقالت: اسقوه لبنا حازراً (أي حامضاً)، فقالت: افرشوا له عند الفرث والدم، ففرشوا له فنام.

فلما أصبحت ، أرسلت إليه : إني أريد أن أسألك، فقال لها: سلي عما بدا لك، فقالت : مم تختلج شفتاك؟، فقال: من تقبيلي فاك. فقالت: مم تختلج كشحاك؟ قال: لالتزامي إياك، قالت: م تختلج فخذاك؟ فقال: لتوركي إياك.

فقالت: عليكم بالعبد،شدوا أيديكم به ، ففعلوا، ومر قوم بالبئر الذي فيه امرؤ القيس فاستخرجوه منه، فرجع امرؤ القيس إلى حيِّه واستاق مائة من الإبل، وأقبل إلى حي المرأة، فلما وصل قيل للمرأة: قد جاء زوجك.

فقالت: والله ما أدري أهو زوجي أم لا، ولكن انحروا له جزوراً، وأطمعوه من كرشها وذنبها، ففعلوا فلما أتوه بذلك قال: أين الكبد والسنام والملحة ؟ وأبى أن يأكل. السنام الحدبة في ظهر الجمل، وهي أطيب ما فيه، قال النابغة الذبياني :

فإن يهلك أبو قابوس يهلك ربيع الناس والبلد الحرام
ونمسك بعده بذناب عيش أجب الظهر ليس له سنام

فقالت: اسقوه لبنا حازراً فأبى أن يشرب، وقال أين الضرب والزبد؟ فقالت: افرشوا له عند الفرث والدم، فأبى أن ينام، فقال : افرشوا لي فوق التلعة الحمراء، واضربوا لي عليها خباء.

ثم أرسلت إليه تقول: هات شرطي عليك في المسائل الثلاث، فأرسل إليها سلي عما شئت.

فقالت: م تختلج شفتاك؟ قال : لشربي المشعشعات، قالت: م تختلج كشحاك؟. قال: للبسي الحبرات. قالت: م تختلج فخذاك؟ قال لركوبي السابقات.

فقالت: المرأة هذا هو زوجي، فعليكم بالعبد فاقتلوه، فقتلوه، وأقبل امرؤ القيس إلى زوجته مسروراً للظفر بمطلوبه.

ثم قال ابن هبيرة: لا خير في سائر الحديث الليلة بعد حديثك يا أبا عمرو، ولن يأتينا أحد بأعجب منه، فقام الجميع وانصرفوا وأمر لأبي عمرو بجائزة سنية.